الفصل الثاني

رجال تصوير وموسيقى

فنسان فان جوخ

العصور الهولندي

وزار الفنان فنسان فان جوخ أخاه «تيو» وزوجته في منزله بباريس في يوليو عام 1890م، وكان شقيقه في ذلك الحين يعوله ويعنى به في مرضه الأخير، فأكدت له هذه الزيارة أنه ينبغي ألا يظل عبئًا على أخيه، فلما عاد إلى هولندا كتب إليه يقول:

- إنك عاونتني يا أخي كثيرًا، وآثرت الفقر لتعولني. وأرى واجبي الآن أن أرد إليك ما أنفقت علي، أو أن أسلم الروح وأوثر الموت على الحياة!

ثم عكف فنسان في النصف الثاني من الشهر على رسم لوحته الأخيرة الرائعة: «غربان تطير فوق حقل القمح».

وفي اليوم السابع والعشرين حمل أدوات الرسم ساعة الأصيل، وانطلق بها إلى

حقل القمح الأصفر، وهناك في أعلى التل رفع وجهه إلى الشمس، وأطلق على صدره رصاصة من مسدس كان يحمله!

ولم تصب الرصاصة قلب فنسان، فعاد إلى غرفته فوق مقهى «رافو» وقد عني بربط أزرار سترته، حتى لا تفضح الدماء المتدفقة أمره، ومر من أمام السيد «رافو» صاحب المقهى، وكان جالسًا مع زوجته في المدخل، فنظرت إليه المرأة في دهشة، ثم قالت لزوجها في قلق بعد أن اختفى فنسان داخل البناء:

- أرجو أن تصعد بسرعة لترى ماذا بالفنان الشاب!

وكان فنسان قد انتابه مرض عقلي من جراء ما أصابه من الفقر واليأس وشقاء الفن والفنانين في ذلك الزمان، ولم يكن قد اتجه إلى العناية بالفن في أوائل نشأته، ولم تكن التربية الفنية في أول حياته هي وسيلته إلى الحياة.

ولكن كل شيء حوله كان يدل على أن هذا الشاب الهولندي ذا الشعر الأحمر، الذي كان يعمل بائعًا للصور في متحف «جوبيل» بلندن، والذي كان في الثانية والعشرين من عمره سيكون له مستقبل حسن في فن التصوير. ولقد كان له عم هرم يملك نصف متاحف جوبيل في بروكسل وباريس وبرلين ولاهاي وأمستردام. ويقال إنه ينوي أن يوصي للشاب بكل ما يملك. وكان له عم ثان له عدة حوانيت كبيرة لبيع الصور في بروكسل، وثالث يملك أكبر متجر في هولندا بأسرها.

ولكن «فنسان» وجد نفسه فجأة وقد فقد كل متعة في بيع الصور، فقد أحب لأول مرة في حياته فقوبل حبه بالامتهان.. وفي الليلة التي قال فيها لفتاته «أورسولا»: «أتقبلين أن تكوني زوجتي؟».

أجابته قائلة وقد اتسعت عيناها من الدهشة: «زوجتك!.. هذا محال، فأنا مخطوبة.. وخطيبي في (ويلز!..» ثم أفلتت يدها من يده، ودارت على عقبيها وأضافت تقول في صوت كالهمس كان له في نفس الفتى وقع الصاعقة: «يا له من بائع صور أحمق.. أحمر الشعر!».

وأدارت هذه اللطمة رأس «فنسان»، إلا أن الألم - وهذا من دواعي العجب - قد أرهف إحساسه بالألم في نفوس الآخرين كما جعله لا يطيق النجاح الصاخب الرخيص.

ولم يكد ينقضي شهر على هذا الحادث حتى نفض «فنسان» يديه من تجارة الصور وترك عمله في متحف «جوبيل»، وانتظم قسيسًا في مدرسة لطائفة «النظاميين»

(الميثوديست)، وكان تلاميذها من أحياء «لندن» الفقيرة، وفي بيوتهم عرف «فنسان» لأول مرة معنى الفاقة الحقيقية، فقد كانت الأسر تحشد كقطعان الماشية في غرف عارية باردة، وأفرادها ينتفضون من شدة البرد ووجوههم تنطق بالسقم والبؤس، وتذكر وهو ينصت إلى قصص تعاستهم قول أحد المفكرين: «إن الإنسان لم يخلق على هذه الأرض ليسعد وحسب، ولا ليكون شريفًا فقط، ولكن ليقوم من أجل الإنسانية بمساع عظيمة، وليرتقي إلى مرتبة النبل».

فخطر للشاب أن من الخير أن يكون المرء «إنجيليًا» في مثل هذا الحي البائس.

وذات يوم من أيام الآحاد، كلف «فنسان» بأن يلقي عظة في كنيسة كبيرة على جمهور حاشد يضم نخبة ممتازة من الناس، فكان لصوته وحماسته وعينيه النافذتين وقع عظيم، وتمنى حينما التف حوله السامعون لمصافحته لو أنه استطاع أن يحمل نجاحه هذا ليضعه في تواضع عند قدمي «أورسولا» ويشركها معه فيه، وانطلق يسير تحت وابل المطر حتى أتى بيتها فوجده غارقًا في الأضواء والمركبات مرصوصة أمام بابه، ووقعت عيناه على «أورسولا» مستندة إلى ذراع شاب نحيل طويل القامة، وهما واقفان بالباب والناس يخرجون وينثرون عليهما الأرز وهم يضحكون! فقفل الشاب راجعًا تحت المطر المنهمر ليحزم متاعه ويغادر مدينة «لندن» إلى غير رجعة.

***

ولم ينقض وقت طويل حتى أدرك «فنسان» أن التربية الدينية لا تلائمه، وكان السؤال الذي يشغل باله ويضنيه في كل لحظة من لحظات الليل والنهار هو: هل ينبغي أن يكون قسيسًا محترمًا بارعًا؟ وما القول فيما ينشد من فعل الخير وتقديم العون للفقراء والمرضى والبائسين؟

واقترح عليه أحد أصدقائه أن يذهب لتحقيق آماله في منطقة البوريفاج وهي منطقة الفحم في بلجيكا، حيث يعمل المعدنون دائمًا وهم في خطر من الغاز والانفجارات أو الفيضان، ويأخذون أجورًا لا تكاد تكفي لما يسد الرمق، ويعيشون في أكواخ بائسة ينتفض فيها أولادهم ونساؤهم أكثر العام من أثر البرد والحمى!

فذهب «فنسان» إلى «البوريفاج» منتدبًا من قبل اللجنة الإنجيلية، ولم يترك كوخًا في البلدة إلا زاره مواسيًا وحمل إليه الطعام، ولا مريضًا إلا عني به وجلب له الدواء، ولا مكروبًا إلا هون عليه وصلى معه، وكثيرًا ما كان يبذل للعمال ما كان في جيبه من

مال قليل، ولم يكن يخفى عليه أن هذا عبث لا جدوى فيه، إذ كان هناك مئات من الرجال والنساء والأطفال في «البوريفاج» يتضورون جوعًا أو يفتك بهم البرد والمرض!

وعاد الشاب ذات يوم إلى غرفته وهو يوشك أن يفقد عقله من جراء ما يحيط به من المآسي والآلام، فأجال بصره في أرجاء غرفته المريحة، وسريره الوثير، ثم ألقى نظرة على صوانه المليء بالملابس، وبدا له أن لديه من الطعام لوجبة واحدة أكثر مما عند هؤلاء المعدنين لمدة أسبوع كامل، فشعر فجأة بأنه منافق كذاب، وجبان أثيم، يعظ الناس ويزيِّن لهم فضائل الفقر وهو يعيش في رغد وسعة!

فجمع «فنسان»ما زاد عن حاجته من الثياب وقدمها إلى من هم أشد حاجة إليها، وانتقل إلى كوخ لا نافذة له ولا بلاط، تغشاه الريح إذا ما هبت وتنفذ إليه الأمطار والثلوج، وأخذ يعيش كما يعيش عمال المناجم، فيأكل من طعامهم وينام على فراش كفرشهم، بل لقد دهن وجهه بتراب الفحم كي يبدو مثلهم، فأصبح أخيرًا واحدًا منهم وصار له الحق في أن يبلغهم تعاليم الإنجيل.. وكان ينفق أكثر مرتبه على غيره، وأضناه الجهد وقلة الطعام، فكان يروح ويغدو وهو محموم، وعيناه كأنهما جمرتان تتقدان، وأعصابه تكاد تتمزق، إلا أنه ظل متجلدًا قوي العزيمة على الدوام.

وذات يوم، حدث بالمنطقة حادث احترقت بسببه جلود ثلاثة من الأطفال واضطر «فنسان» إلى تمزيق سترته وملابسه الداخلية وقميصه، ثم سراويله ليتخذ منها جميعًا ضمادات يعصب بها جلود الصبية المساكين بعد أن دهنها بالزيت، فأعلنت «اللجنة الإنجيلية» أن مسلك «فنسان» «شائن وأخرق»، وقطعت عنه مرتبه بعد أن نهته عن الوعظ!

وهكذا أفلس الشاب مرة ثانية فوجد نفسه بلا عمل، ولا مال، وأصبح لا يدخل كوخًا، أو يواسي مريضًا، أو يكلم أحدًا إلا فيما ندر.. بل شر من ذلك كله أنه فقد قوة روحه وقدرته على البدء من جديد!

***

وانقضت شهور ثم استيقظ شيء في نفس «فنسان»، إذ قال لنفسه إنه لا يمكن أن يكون عاجزًا كل العجز، وإن في وسعه أن يسهم على نحو ما في إسداء بعض الخير إلى الناس، ولكن.. كيف السبيل إلى ذلك؟

وكان الشاب في تلك اللحظة جالسًا عند باب المنجم، فأخذ يرسم العمال وهم

يخرجون، وأدرك فجأة في المساء وهو يعيد رسم ما صور أنه لا يزال يحن إلى عالم الصور، فعكف بعد ذلك على العمل، وعاد يدخل الأكواخ كما كان يفعل من قبل، وفي يده ورق وقلم في هذه المرة بدلًا من الإنجيل، وراح يرسم ويرسم، فصور الأسرة وهي جالسة إلى طعام العشاء، والزوجة وهي مائلة على القدر، والأطفال وهم يمرحون ويلعبون.. وانقضى عليه أحد عشر يومًا وهو عاكف على الرسم، عاشها على أرغفة من الخبز اقترضها وليس في جيبه درهم واحد، لكنه كان يشعر مع ذلك بأنه هانئ سعيد، وعرف أن خدمة الكنيسة لم تثر في نفسه هذه النشوة الغامرة التي أثارها فيها الفن الخلاق.

وانقضت شهور أخرى ثم مرض «فنسان» فلازم الفراش محمومًا غائر العينين، وعلى هذه الحال وجده شقيقه «تيودور» - وكانوا يلقبونه «تيو» - الذي جاءه فجأة دون أن يخطره بمقدمه.. وكان «تيو» في الثالثة والعشرين من عمره، ولكنه كان تاجرًا ناجحًا يبيع الصور في باريس وينعم ببسطة في الرزق، ويستمتع بكل مباهج الحياة.. فساءه أن يجد أخاه ضحية الحاجة والمرض، وكان يحبه حقًا وينزله من نفسه منزلة خاصة، فصمم على انتشاله من هذا الجحيم،وقال له: «اسمع يا فنسان.. إذا كنت قد اهتديت حقًا إلى العمل الذي تحبه وتتقنه، فلم لا نكون شركة بيننا؟ أنت تقدم العمل، وأنا أدبر المال اللازم، وفي استطاعتك أن تعيش حيث تشاء: في باريس، أو أمستردام، أو لاهاي..».

واستقر «فنسان» في «لاهاي» حيث تتلمذ على المصور المعروف «انطون موف»، واستأجر «ستوديو» بمائدة ومقعدين و«بطانية»، وعكف على الرسم. وكان الفنان الشاب ينام في الأستوديو على الأرض ويقاسي آلام الوحدة، هذا فضلًا عن أن النماذج التي كان بحاجة إليها ليصورها كانت تكلفه ثمنًا غاليًا، وربما تأخر وصول الفرنكات المائة التي يمده بها شقيقه «تيو» كل شهر فيفلس وتضيق به السبل، ويتمنى لو أن القدر من عليه بلحظة واحدة يستطيع فيها أن ينعم مرة في حياته بالراحة والاطمئنان.

وتلقى «فنسان» أول طلب للوحاته من عمه كورنيليوس فان جوخ تاجر الصور الفني، طلب منه اثنى عشر لوحة، كل واحدة بفرنكين ونصف فرنك!.. فسر «فنسان» بذلك أيما سرور، وبعث بالصور إلى عمه على الفور، غير أنه اضطر أن ينتظر طويلًا حتى يتلقى الفرنكات الثلاثين!

ومضى الصيف، وكان «فنسان» يغادر البيت في الصباح المبكر فلا يعود إلا بعد حلول الظلام، غير أن الشتاء ما لبث أن جاء فاضطره إلى العمل في البيت، الأمر الذي كان يضطر الفنان إلى أن يستيقظ في الساعة الخامسة صباحًا ليعنى بشئون البيت!

وأخيرًا أقبل الربيع، وكانت أحواله قد زادت سوءًا، فكتب إلى شقيقه خطابًا قال فيه: «عزيزي تيو، ذهبت إلى مدينة آرل، أرجو أن تعلق بعض لوحاتي على الجدران حتى لا تنساني. أقبلك.. فنسان».

وفي آرل، خلبت لبه ألوان الريف الجنوبي، فأخذ يسائل نفسه: «كيف يرسم هذه الألوان الرائعة؟ السماء ذات اللون الأزرق العميق، والشمس ذات الصفرة الوهاجة، وحمرة الأرض، وأزهار البساتين؟..» وراح الفنان يستيقظ كل صباح قبل الفجر، ويعود في المساء يحمل تحت ذراعه لوحة قد أتم رسمها..! وكانت كل لوحة يرسمها ترجمة رائعة خالدة للطبيعة الوهاجة، ولم يكن يحيا حياة شخصية، وإنما كان أداة عمياء للرسم، أداة تعمل لأنها لا تستطيع إلا أن تعمل، كانت حياته شيئًا واحدًا لا غير: القدرة الهائلة على الخلق والإبداع.

❊❊❊

وانتابه الأرق ذات ليلة، فقصد إلى «الميزون دي توليرانس»، وهناك تسللت إلى جواره فتاة قالت له وهي تبتسم: «إنني أدعى راشيل».. ونظر إليها «فنسان» فوجدها جميلة الوجه ذات عينين واسعتين زرقاوين وشعر أسود في لون الفحم، فقال لها:

- إنك رائعة الجمال يا راشيل!

فابتسمت له الفتاة وتناولت يده وهي تقول:

- إنني أحب أن يعجب بي الرجال، فكم هذا جميل.. أليس كذلك؟ وحينما هم الفنان بالانصراف، قبلت الفتاة أذنه ثم قالت:

- إن لك أذنًا صغيرة جميلة كأنها أذن جرو!.. تعال لتراني كل ليلة.

فقال فنسان:

- ليس كل ليلة يا راشيل، فليس معي المال اللازم لذلك.

فقالت الفتاة:

- إذا لم يكن معكِ المال فاعطني أذنك إذن.. إنني أحب أن ألعب بها!

وودعته الفتاة وهي تقول: «لا تنس أن تبعث إلي بأذنك الصغيرة».

وظل الفنان يعمل طيلة الصيف بكل طاقته حتى كاد يقتله العمل، ونفذ ما كان يملكه من المال مرة أخرى فعاش أربعة أيام على ثلاثة وعشرين قدحًا من القهوة ورغيف واحد من الخبز.

وقاده الحظ ذات مرة إلى بيت أصغر، وهو بيته الأصفر الشهير الذي أحبه الفنان حبًا جارفًا، وكان البيت قائمًا بذاته، وأرضه من البلاط الأحمر، وجدرانه بيضاء، وواجهته إلى الشمس. وكان إيجاره بخمسة عشر فرنكًا في الشهر.

كان البيت واسعًا، فما أبدع أن يستقدم إليه صديقه الفنان الشهير جوجان!.. أما تيو فينبغي أن يجيء إليه دائمًا ليقضي معه أجازته!

***

وجاء جوجان، وكان لقاء حارًا صاخبًا بين الصديقين، غير أنهما ما كادا يستقران في البيت حتى أخذا يختلفان في آرائهما نحو الفن، فكانا بالنهار يقذفان بعضهما بألواح الألوان، وبالليل تتصارعان شخصياتهما صراعًا شديدًا، ولجأ الفنانان إلى شراب «الإبسان» لتسكين أعصابهما ولكنه زادهما ثورة.

وذات ليلة، كانا في أحد المقاهي، فتناول «فنسان» قدحًا وقذف بها في وجه جوجان، فاتقاها جوجان وحمل صديقه إلى البيت، وبقي فنسان بعد ذلك الحادث هادئًا عدة أيام، وحينما كان الصديقان يتناولان عشاءهما ذات ليلة في صمت واكتئاب غادر جوجان البيت دون أن ينبس بكلمة واحدة!

وحينما وصل جوجان إلى خارج البيت، سمع خلفه وقع خطى سريعة قصيرة يعرف صاحبها جيدًا، فالتفت إلى الوراء فوجد صديقه يتحفز للهجوم عليه وقد أمسك في يده بموسي حادة!.. وهجم عليه فنسان فاستدار جوجان على عقبيه في سرعة.. وفجأة، وقف فنسان يحدق في صديقه لحظة، ثم انكفأ يعدو إلى البيت.. وقضى جوجان هذه الليلة في أحد الفنادق.

وبعد ذلك بقليل من الوقت شاهده الناس يتوجه إلى «الميزون دي توليرانس» ورأسه معصوبة بضمادات كثيرة، فلما بلغه الفنان أخذ يبحث بين الموجودين عن راشيل، ورأته الفتاة فأسرعت من فورها نحوه وهي تقول: «إنه أنت أيها المجنون ذو الشعر الأحمر؟.. هل ستأتي الآن معي؟».

فأجابها فنسان قائلًا وهو يمد يده إليها بلفافة مربوطة:

- كلا، ولكن إليك هذا التذكار.

- كم أنت لطيف حقًا!.. ما هو هذا التذكار؟

- افتحي وانظري ما بداخل اللفافة!

فحلت الفتاة الرباط، فظهرت على وجهها أروع مظاهر الرعب، فقد وجدت بداخلها أذن يقطر منها الدم!.. وسقطت الفتاة مغشيًا عليها على درجات السلم.

وحينما استيقظ الفنان في اليوم التالي وجد شقيقه تيو إلى جوار فراشه، فراح يبكي وينتحب في مرارة وهو يقول: «عزيزي تيو.. حينما أستيقظ وأحتاج إليك أجدك دائمًا إلى جواري!».

وظل تيو صامتًا لا ينبس بكلمة.

***

وبعد أسبوعين، أذن الطبيب للفنان بأن يواصل الرسم، ولكنه حذره بشدة من الإغراق أو التهاون، ومضت عدة أسابيع، ثم حدث أن كان فانسان ذات ليلة في أحد المقاهي، وإذ به يدفع الطبق إلى الأرض ويركل المائدة بقدمه ثم يثب وهو يصيح قائلًا: «إنكم تريدون أن تسموني».

وحضر اثنان من رجال الشرطة وحملاه إلى المستشفى، وما لبث الطبيب بموافقة تيو وبناء على رغبة فنسان نفسه أن قرر إدخاله مستشفى «سان ريمي» للأمراض العقلية، وهناك أوصدت الأبواب على الفنان العظيم.

ولاحظ فنسان فيما بعد أن النوبات التي تعتريه دورية، وأنها تنتابه مرة كل ثلاثة أشهر. وذات يوم وصلته رسالة مسجلة من شقيقه تيو يقول فيها: «أخيرًا، بيعت لوحتك - الكرم الأحمر - بأربعمائة فرنك، فأهنئك، وإنني لواثق من أن لوحاتك سوف تباع قريبًا في كل مكان في أوربا».

وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ تلقاه الفنان في حياته، فتحسنت صحته وأحواله النفسية، وأقبل على العمل في حماسة منقطعة النظير، غير أنه صار يحتاط بعد أن عرف مواعيد النوبات، فكان يرقد بضعة أيام، ثم ينهض مرة أخرى ويعكف على العمل.

وقبل أن تعتريه إحدى النوبات بيومين، احتاط لها الفنان فأوى إلى فراشه وهو

في صحة جيدة. وجاء يوم النوبة المنتظر، ثم انقضى بعده يوم آخر، ولكن «فنسان» كان لا يزال يحس بأنه في حالة طبيعية، ومر يوم ثالث لم يحدث فيه شيء، فضحك الفنان وقال: «ألم أقل إن الطبيب قد أخطأ؟.. لقد ذهب عني المرض وتم لي الشفاء، وغدا أعود إلى الرسم».

وفي الليلة ذاتها، نهض «فنسان» من فراشه، وكل من في المستشفى نيام، ونزل حافي القدمين إلى مخزن الفحم فلوَّث يديه ومرغ وجهه في ترابه ثم راح يقول: «ألا ترون أنني الآن واحد منهم؟.. الآن أستطيع أن أبلغ عمال المناجم كلمة الله!»، وعثر عليه الحراس في الفجر بالمخزن وهو يهمس بصلوات مضطربة مختلطة، ويرد على أصوات وهمية كان يتوهم أنها تتحدث إليه!

***

وقضى «فنسان» في مستشفى «سان ريمي» ثمانية عشر شهرًا، واستقر عزمه أخيرًا على أن يغادر المستشفى، إذ كان يتطلع إلى ضوء أكثر توهجًا ويتوق إلى صحبة زملائه من الفنانين بعد أن ضاق صدره بنزلاء المستشفى من المجانين، واقترح عليه صديقه الفنان «بيسارو» أن يتوجه إلى بلدة «أوفير سيرواز» Auvers-sur -Oise لأن بها طبيبًا يدعى الدكتور «جاشيه» مغرم بفن الرسم إلى حد الجنون، بل ويمارس الرسم بنفسه.

وفي الطريق إلى بلدة «أوفير» في أواخر مايو عام 1890، عرج الفنان على باريس حيث زار شقيقه «تيو» فوجد أنه قد تزوج وأصبح ربا لأسرة، فأحس «فنسان» بمدى عمق وحدته، وخشى في الوقت نفسه أن ينقطع عنه عون أخيه، غير أن موقف «تيو» من شقيقه لم يطرأ عليه أي تغيير.

وفي بلدة «أوفير»، استأجر «فنسان» غرفة صغيرة فوق مقهى «رافو» وعكف على الرسم في حماس لم يسبق له نظير، وقد أثر فيه جمال الريف وخضرة الحدائق أيما تأثير، فضلًا عن ذلك الاستقبال الحافل الذي استقبله به الدكتور «جاشيه».

وفي السادس من يوليو عام 1890م، قام الفنان بزيارة أخيه «تيو» وزوجته وطفلهما «فنسان» مرة ثانية في باريس، فأكدت تلك الزيارة في ذهنه أنه لا ينبغي عليه أن يظل عبئًا على أخيه، فكتب إلى «تيو» يقول: «إنك عاونتني يا أخي كثيرًا، وآثرت الفقر لتعولني. وأرى من واجبي أن أرد إليك ما أنفقت علي أو أن أسلم الروح، وأوثر الموت

على الحياة. ترى هل آن الأوان لينظر «فنسان» إلى الموت وجهًا لوجه؟!.. وعكف «فان جوخ» خلال النصف الثاني من الشهر نفسه على رسم لوحته الأخيرة الرهيبة: «غربان تطير فوق حقل من القمح»، وفي اليوم السابع والعشرين، حمل «فنسان» أدوات الرسم ساعة الأصيل، وانطلق بها إلى حقل القمح الأصفر، وهناك في أعلى التل، رفع وجهه إلى الشمس وأطلق على صدره رصاصة من مسدس كان يحمله!

ولم تصب الرصاصة قلب «فنسان»، فعاد إلى مقهى «رافو» وقد عني بإحكام ربط أزرار سترته حتى لا تفضح الدماء المتدفقة أمره، ومر من أمام السيد «رافو» صاحب المقهى، وكان جالسًا مع زوجته في مدخل المقهى، فنظرت إليه المرأة في دهشة ثم قالت لزوجها في قلق بعد أن اختفى الفنان الشاب داخل البناء: «أرجو أن تصعد بسرعة لترى ماذا به!».

وما كاد الرجل يدخل غرفة «فان جوخ» حتى وجده ممددًا في فراشه ووجهه تجاه الجدار وقد لوث الدم سترته، فقال له الفنان في بساطة وهدوء: «لقد أردت أن أقتل نفسي فأخطأت الهدف.. هذا كل ما هنالك!».

وقرر الدكتور «جاشيه»، كما قرر معه طبيب «أوفير»، أن إخراج الرصاصة من صدر «فنسان» أمر محال، وأراد الرجل أن يطمئن الجريح فأخذ يحدثه عن الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسه، فلم يزد هذا على أن قال له في بساطة: «آه!.. حسنًا!» وطلب أن يحضر له غليونه، ولما سئل عن عنوان سكن أخيه رفض أن يشير إليه بكلمة واحدة.

وقضى «فنسان فان جوخ» ليلته وهو يدخن في صمت، صابرًا على آلامه، وكان السيد «رافو» وابن الدكتور «جاشيه» يتناوبان السهر عليه.

ولما أقبل رجال الشرطة للتحقيق في الصباح اكتفى الفنان الجريح بأن تمتم قائلًا: «إن هذا لا يعني أحدًا سواي!».

وكان «تيو» قد أخطر بما حدث على عنوان المتجر الذي كان يعمل به فأسرع من فوره بالمجيء وقد أذهله النبأ وعصفت به الأحزان، فقال له فنسان في مزيج من الهدوء والحنان: «علام البكاء يا أخي؟.. إنما فعلت ما فعلت ابتغاء لخير الجميع!».

ودار بين الشقيقين حديث طويل باللغة الهولندية، وانقضى بعض الوقت ثم سأل «فنسان» أخاه عن رأي الأطباء في حالته فطمأنه «تيو» وأكد له أنه سيتماثل عاجلًا

للشفاء، فلم يزد الفنان الشاب على أن قال: «لا جدوى من ذلك، فسوف تدوم الأحزان!».

وأتى ليل جديد فأخذ «فان جوخ» يحتضر في هدوء.. وانتبه الشاب من شروده فجأة وقال لأخيه: «هكذا أريد أن أنتهي» ولا غرو فقد كان الموت بالنسبة إليه أكثر هدوءًا ووداعة من الحياة.. وقضى نحبه دون أن يقاسي مزيدًا من الآلام، فلفظ آخر أنفاسه في منتصف الساعة الثانية صباحًا في التاسع والعشرين من شهر يوليو عام 1890م.. قضى نحبه ولم يتجاوز من عمره السابعة والثلاثين.

وعلق أصدقاء الفنان الراحل آخر لوحاته في الصالة الكبرى بمقهى «رافو»، ووضع نعشه على منصة عالية تحف به الزهور ومن بينها باقة من زهور دوار الشمس، ووضع الحامل الذي كان يستعمله في الرسم أمام النعش، كما وضعت «الفرش» وأنابيب الألوان، التي كانت متعته الكبرى وسعادته الوحيدة في هذه الحياة.

ولفجانج أماديوس موزار

الموسيقار النمساوي العبقري

وقال موزار لمن حوله، وهو يعاني سكرات الموت:

- ألم أقل لكم إنني لم أؤلف اللحن الجنائزي إلا من أجل نفسي.

وارتسمت على شفتي الفنان العبقري أنغام النفخ في الصور يوم القيامة كما صورها في هذا اللحن الحزين الذي ختم به حياته كفنان، وحياته كإنسان إلى الأبد!.

وكان قبيل وفاته قد أصيب بداء الحمى، فأثر في صحته، وزاد من ضعفه وهزاله، وجاءه في ذلك الحين شيخ غريب، عابس الوجه، قد وضع شارة الحداد على قبعته وذراعه. وقدم له رسالة يقول فيها كاتبها إن زوجته توفيت، ويريد من الموسيقار أن يؤلف له قداسًا يلقى في ذكراها بالكنيسة. وهو مستعد لدفع ما يطلبه من المال نظير ذلك العمل الفني. فقرأ موزار هذه الرسالة. ولما انتهى من قراءتها قال للشيخ الغريب:

- إن الرسالة خالية من التوقيع!

فأجابه الشيخ:

- ليس ذلك بالأمر المهم.. ما دمت قد جئتك بها..!

فقال موزار:

- ومن تكون أنت أيها الشيخ؟

فأجاب:

- أنا رسول مكلف بأن أعود بالرد، وأن أدفع لك ما تريد إذا شئت!

فتعجب موزار، وأخذ يفكر، ودارت برأسه خواطر كثيرة. وكان قد أمضى حياته القصيرة لم يؤلف فيها لحنًا جنائزيًا، وكان يتمنى لو أتيح له أن يقدم من إنتاجه شيئًا من الموسيقى الدينية والألحان الجنائزية التي لا تقل أهمية عن فن الأوبرا.

واتفق مع الشيخ على وضع هذا اللحن. ثم قال له:

- سأضع اللحن المطلوب، ولكنني لا أستطيع أن أعين لك اليوم الذي أقدمه فيه إليك!

قال الرجل: «لك ما تريد من الوقت الكافي للتلحين، وليس في الأمر عجلة. وما هي قيمة الأجر؟».

فأجاب موزار: «أربعون جنيهًا..».

فأخرج الشيخ المبلغ وقدمه إليه قائلًا:

- إني مكلف بأن أدفع لك المبلغ حالًا، وعند تسلمي اللحن سأقدم لك مبلغًا آخر!

- إلى من أرسل اللحن بعد إنجازه؟.

- سأحضر أنا لأتسلمه بيدي.

وانصرف الشيخ الغريب بعد ذلك. وقد عرف المؤرخون فيما بعد أن مرسل هذا الشيخ وصاحب الرسالة، هو «الكونت فالسيج»، وكان هذا الكونت مولعًا بتكليف مؤلفي الموسيقى أن يضعوا له الألحان سرًا ثم ينتحلها لنفسه، ويدعي أنها من تأليفه.

***

كان ذلك في يوم من خريف عام 1791م، وكان نجم حياته يزداد سرعة وتوهجًا وهو منطلق إلى الظلام الأبدي. وقد بلغ العام الخامس والثلاثين من عمره، وأدركه الداء في مدينة فينا. وعلى الرغم من ذلك قام في صيف ذلك

العام بتلحين الأوبرا الشهيرة: «الناي السحري» فجاءت تحفة فنية رائعة، حفلت بأعظم الأنغام، وأبرع الفن..!

وكان قد لحنها استجابة لرغبة صديق له، كان مديرًا لكثير من مسارح النمسا. وهو «عمانويل شيكانيدر»، ثم صار مديرًا لأحد مسارح فينا. وقد حالفه النجاح طويلًا، ثم عبس الدهر في وجهه، وأصيب بالبوار والفشل، فلجأ إلى موزار، وكان قد سئم الحياة، وما عاناه من بؤس، وما رآه من جحود لعظمة الفن، وحسد من زملائه، وفشل في النمسا وفي مدينة فينا بالذات حيث وصلت به الحال إلى أن يرهن حلى زوجته «كونستانسه» ومتاعه، وأن يموت أولاده الكثيرون واحدًا بعد واحد، ما عدا ابنه البكر «كارل»، فريسة للفقر والأمراض.. حتى كان يقول:

- إن الموسيقى فن لا خبز فيه!

فلما جاءه صديقه وهو على هذه الحال رحب به قائلًا:

- صديقي شيكانيدر.. أهلًا وسهلًا.. إنني لم أرك منذ زمن طويل. كيف حالك؟

- حالي سيئة جدًا يا صديقي، لقد فشلت بعدما شهدت من النجاح والإقبال على مسرحي كثيرًا.. إن سباق الخيل، ودور الملاعب «الأراجوز»، والأعمال البهلوانية التي يتفكه بها الناس، قد صرفت الناس عن مسرحي، ومهما قدمت لهم من مسرحيات غنائية أو هزلية، يظل المسرح خاليًا طول الليل.

فابتأس موزار لهذا الخبر المحزن، واستولى عليه الأسى لهذه الحال، وكان يعرف مبلغ الإقبال الذي كانت عليه مسارح صديقه، وما كان يتمتع به من النجاح وسعة الثراء، حتى كان يعيش عيشة الأمراء، ويعد في طليعة الطبقة الراقية، وامتد بموزار الأسى فسأل صديقه والدموع تكاد تنهمر من عينيه: «وهل هذا حقًا.. إنني أكاد لا أصدق؟!».

فقال شيكانيدر:

- إنني يا صديقي لا أقول إلا حقًا. وليس هنالك في العالم كله إلا شخص واحد يستطيع أن ينقذني مما أنا فيه، هو أنت يا موزار..!

فأجاب موزار في إشفاق وصوت حزين.

- أنا؟.. كلا.. إني لا أملك شيئًا.. وأنت أعلم الناس بما أعانيه من حرمان!

- لست أطلب منك معونة مالية، إنما أطلب معونة فنية.. إني أريد أن تلحن أوبرا خاصة لمسرحي بفينا.. وهذا ما أراه المعونة الكافية لإنقاذي من الفشل والديون!

- لقد آليت بعدما رأيت من جحود فينا، ألا ألحن لها أوبرا. فبكى شيكانيدر، وأقبل على موزار والدموع تنهمر من عينيه، ووضع يده على كتفه، وقال:

- يا عزيزي موزار.. إني أعهد فيك العطف والمودة والوفاء.. وإذا تخليت أنت عني في هذا الوقت العصيب، فمن ذا الذي أطمع في نجدته؟!

فتأثر موزار من هذا القول، ومما رأى صديقه فيه من حال بائسة، وكان طيب النفس، مرهف الإحساس.. فسأل شيكانيدر:

- كيف تريد أن تكون هذه الأوبرا؟

فأجابه:

- أريد أن تكون أوبرا لا مثيل لها تسحر أهل فينا، وكل من شاهدها من المدن الأخرى، بل تكون أوبرا خالدة خلود ما لحنته في حياتك من أوبرات رائعة. وسأقدم لك الموضوع بعد بضعة أيام.

فقال موزار في مودة وترحيب:

- سأحقق لك يا صديقي كل ما تريده، وسأبذل كل جهدي لتكون أوبرا فريدة..

فأقبل عليه سيكانيدر يضمه إلى صدره، ويقبله في وجهه وهو يقول:

- إني أهنئ نفسي، فقد أنقذت!

***

وبعد نحو ثمانية أيام أقبل شيكانيدر إلى موزار، وسلمه المسرحية التي ألفها ليضع لها الأوبرا، وفي اليوم الثاني من تسليمه هذه المسرحية حضر إليه، وسأله رأيه فيها.. فابتسم موزار وقال له: «لقد قرأتها فوجدتها كخيلات مجنون، لا يستطيع الإنسان أن يدرك كنهها، أو يفهم لها معنى، ولن يعرف أحداثها هل تجري في الأرض أو تمثل في

السماء. إنها مملوءة بأناس لا شخصية لهم ولا جنسيه، ومناظر يتداخل الواحد منها في الآخر بلا نظام أو ترتيب مفهوم»[1].

فقاطعه شيكانيدر قائلًا:

- أليس في كل هذا ما يوقظ قوة الخيال في الجمهور، ويثير عجبهم ودهشتهم.. وما رأيك في روعة النظم؟

فأجاب موزار في تهكم شديد:

- حقًا.. إن النظم رائع.. انظر إلى قولك فيه: «المرأة تعمل قليلًا، وتتكلم كثيرًا».. أيها الصبي هل سمعت بدمية تتكلم!

- صدقني يا موزار، وأنا خبير بشئون المسرح، عالم بذوق أهل فينا أن هذا خير ما يتفق وذوق العصر الذي نعيش فيه، وسوف ترانا نستولي على حس الجمهور وسمعه.

- والزوجان اللذان نصفهما إنسان، ونصفهما طائر، كيف يظلان في ديالوج كامل، لا يغنيان إلا مقطعًا واحدًا هو: بابا.. بابا.. بابا.. إلخ؟

- أليس في هذا ابتكار منقطع النظير؟.. وتجديد لم يره الجمهور من قبل؟

ولما وجد موزار أن حواره مع شيكانيدر في هذا الشأن غير مجد طوى حواره معه، وأبدى موافقته على تلحين الأوبرا، وختم الحديث بقوله:

- سألحن لك المسرحية، ولو أنني سأضحك من نفسي أثناء التلحين!

***

وأقبل موزار على تلحين أوبرا «الناي الساحر» بما أعطى من موهبة ونبوغ، وكان شيكانيدر يزوره من وقت لآخر، ويستمع إلى ما أنجزه من تلحين، وقد يتدخل في تعديل بعض الألحان أو يطلب إليه تبديلها بحجة أنها لا تتفق وعقلية الجمهور، وكان يقول له:

- نريد أن يستمتع الجمهور باللحن، لا أن يفكر فيه، ولابد أن نستهوي عواطفه وحواسه ونكسبها.. يا عزيزي موزار.. قدم إلى الناس ما يشتهونه وما يستطيعون قبوله

(1) عن كتاب موزار للدكتور محمود الحفني.

ويدفعهم إلى الإقبال عليه، إن شعب فينا شعب مرح ميال إلى الفكاهة والتسلية والسمر، فإذا فكر لا يميل إلى التفكير العميق.

فقال له موزار، وهو ينكر عليه امتهان الفن وخروجه على رسالته:

- إن للفن يا شيكانيدر رسالة أشرف من ذلك، يجب أن يرقى الفن بالشعب، لا أن ينزل إليه، ويتخذ وسيلة للكسب والاستغلال، ويجب أن يسمو الفنان بفنه إلى منازل الحقيقة والخلود.

قال شيكانيدر:

- أعرف ذلك يا موزار حق المعرفة، وأعلم أن للفن رسالة شريفة.. ولكن ينبغي أن نقود الناس في هوادة، وأن يكون إرشادنا لهم إلى حقيقة الفن بالتدريج.. الفنان يا موزار كالطبيب يصف دواء مريرًا، ولكنه مفيد يتعاطاه نقطة نقطة، فإن زادت الجرعة انقلبت النتيجة إلى عكسها، وفضل المريض الداء على مرارة الدواء، فما بالك لا تريد أن يتجرع الشعب كأسًا فكأسًا، وتريد أن يتعاطى الزجاجة كلها دفعة واحدة إنك إذن تحمله ما لا طاقة له به.

وكان شيكانيدر يسترسل في إقناع موزار قائلًا:

- خفف يا موزار من غلوائك، وابعد عن خاطرك التفكير في القيصر والبلاط، والأوبرات الإيطالية، فقد تبينت أن هذا الطريق لا يزيدك إلا فشلًا، واتجه إلى الشعب، وفكر فيه وحده، واكتب له تأليفًا من الألحان يجمع بين الحقيقة والجمال، ويناسب عقليته وذوقه، ولقد تعمدت أن يكون موضوع الرواية شيئًا غريبًا، حتى يحرك قوة الخيال في الجمهور، إذ أنه كلما كان الموضوع مألوفًا للناس، لا يغذي خيالهم ولا يثير دهشتهم كان ذلك أدعى للفشل.

استمع موزار في النهاية إلى صديقه شيكانيدر، وكأنه في حلم، ونزل على رأيه في تبسيط التلحين مع الاحتفاظ بعلو الفن، وما امتاز به موزار من عبقرية مكنته من أن يرضى رسالة الفن، وأذواق الجماهير.

***

كانت أوبرا «الناي الساحر» هي آخر أوبرا مسرحية لحنها للناس.. ثم كان اللحن الجنائزي أو قداس الحداد، وهو آخر ما ألفه وهو على فراش المرض لذلك الرسول

الذي بعثه «الكونت فالسيج» قبيل وفاته ليظفر منه بلحن ينتحله لنفسه كما كانت عادته مع بعض الفنانين.. وكان موزار حين جاءه الرسول يعرض عليه مكافأة هذا اللحن في ضنك شديد، ولكنه رأى فيه معونة غير منتظرة في وقت حالك، لولا أنه شعر بانقباض في نفسه بعد انصراف ذلك الرسول المتنكر.

وكان وقتئذ معتزلًا الناس، عاكفًا على العمل لفنه.. ولقد أثر ذلك في صحته، فأخذ جسمه في النحول والهزال. وزاد من ضعف صحته سوء حالته النفسية، وشعوره المرير بعدم فهم الناس له، وتقديرهم لفنه، فلقد أهدى إلى الناس أعمالًا خالدة، وهو مع ذلك محسود محروم، ولقد وجد موزار في القيام بهذا اللحن فرصة سانحة ليودع فيه كل آلامه من الحياة، ومن متاعب الدنيا، ويتجه إلى الله بالإخلاص والتضرع إليه فيما يصوغه من الألحان في هذا القداس الديني.

أقبل موزار على تلحين «قداس الحداد»، وأودع فيه كل ما يشعر به من أشجان، وابتهالات وضراعة إلى الله، ووصف لما في هذه الحياة من شقاء، وما يستقبله الإنسان في حياته الأخرى من سعادة ونعيم. وبذل فيه جهدًا زاد من ضعف صحته وآلامه، فشعر بهبوط مطرد في قواه واقتراب من نهايته، فقال: «أحس إني أكتب هذا القداس لنفسي».

ولكنه كان كبير الحرص على إنجاز هذا القداس، فواصل العمل فيه ليلًا ونهارًا، وعبثًا حاولت زوجته «كونستانسه» أن تصرفه عن هذا المجهود المضني احتفاظًا بالبقية الباقية من حياته، ولكنه كان يحس برغبة ملحة في إنجاز القداس، وكانت هذه الرغبة تتضاعف كل يوم حبًا في أن يكون هذا اللحن الجنائزي آخر ما يتقرب به إلى الله.

وفرغ موزار من تأليف «قداس الحداد» فاستدعى طائفة من أصدقائه وتلاميذه لالقائه.. فحضروا، وقاموا بأداء ألحانه عزفًا وغناء، وكان موزار يغني معهم ممسكًا ورقة بيده يقرأ منها، وكان تلميذه «زيسماير» يعزف على «البيان»، وبينما الجميع منشغلون بالأداء خارت قوى الفنان، وسقطت الورقة من يده، ولم يعد في استطاعته متابعتهم..!

كان ذلك في يوم 4 ديسمبر عام 1791م، ونقل إلى فراشه منهوك القوى وكأنما هو

هيكل أو دمية جامدة، وقد أخذ يهذي وهو على فراش الموت، ثم ينظر إلى ساعته، ويقول:

- الآن يرفع الستار.. الآن يجتازون النار سالمين على أنغام الناي السحري.

وإذ تنبه قليلًا رأى شقيقة زوجته قد أقبلت لزيارته، فقال لها:

- أقيمي عندنا الليلة، فهي آخر ليلة في حياتي..

واشتدت الحال، وأخذ يعاني سكرات الموت، وعاده الطبيب غير مرة، ولكنه عجز عن علاجه، وفاضت روح موزار في الساعة الأولى من صباح 5 ديسمبر عام 1791م.

واجتمع أصدقاؤه وتلاميذه لتشييع جنازته في يوم 6 ديسمبر، ولما خرجوا به إلى القبر تلبد الجو وأومض البرق وعصفت رياح شديدة وهطل مطر غزير، فعاد المشيعون أدراجهم إلى بيوتهم، ولم يقو على تشييع جنازته غير خمسة من أصدقائه، كان من بينهم تلميذه المخلص «زيسماير» ولكن هؤلاء حال بينهم وبين ملازمة الجثمان إلى القبر طول الطريق، وازدياد العواصف والأمطار، فاضطروا مكرهين إلى العودة، ومضى الحوذي بمركبة الموتى وفيها الجثمان بلا مشيع ولا رفيق، فما كان من الحوذي الذي أراد اختصار الطريق إلا أن مضى بالجثمان إلى مقابر الصدقة، وفي حفرة مجهولة بين موتى مجهولين دفن أكبر عبقرية موسيقية عرفها سائر العالم.

لودفيج فان بيتهوفن

الموسيقي الفنان الالماني

واشتدت العلة بالفنان النابغة، واجتمعت عليه آلام الداء الوبيل الذي احتل رئته، وأصابه بضعف شديد، وآلامه النفسية التي كان يعانيها من سيرة ابن أخيه «شارل» السكير السيئ الخلق الذي مات والده، وتركه لبيتهوفن يعوله ويصلح فيه ما أفسده الدهر، بلا أمل في إصلاحه، ولا فائدة في إعالته والصرف عليه، وكان يضطر في كثير من الأحيان للذهاب بنفسه لينتزعه من إحدى الحانات في الأحياء الحقيرة، فيهب هذا الشاب الفاسد في وجه عمه صائحًا:

- فلتذهب إلى الجحيم أيها الأصم العجوز.. إنك قذر دميم بخيل، وأنا أخجل أن أراك أو أسير معك..!

وكان بيتهوفن الذي لا تصل هذه الشتائم إلى سمعه لفقده إياه، منذ كان في السادسة والعشرين، يبتسم للشاب في عطف وحنان.

وذات يوم حاول «شارل» الانتحار، فكان ألم عمه عظيمًا. وقال والدموع تترقرق في عينيه:

- إنني كنت أعتبره كابني تمامًا.. أما وقد حاول الانتحار، فهذا يعني أنه لا يحبني!

وبلغ الفنان سن الخمسين، وهو في هذه الحالة البائسة الكئيبة، وعلى الرغم من همومه، ومتاعبه الشديدة، فقد كتب أروع «سوناتاته» وهي رقم 106، وحينما لم يجد معه من المال ما يكفي لنسخها، كتب إلى أحد الناشرين يقول له:

- لقد ألفت هذه القطعة في ظروف مؤلمة جدًا لو عرفتها لدهشت من أنني لا زلت أستطيع التأليف.. حقًا كم يصعب على الفنان أن يؤلف لقاء كسرة من الخبز يقيم بها أوده.. تلك يا عزيزي هي حالتي!

***

وكان قبل ذلك في عام 1802م، قد وصل به اليأس من حاله إلى درجة فكر معها في الانتحار، ودفعته إلى كتابة وثيقة تعرف بالوصية، قال فيها:

«يا من تنظرون إلي، وتزعمون أني ناقم على الناس، لشد ما تظلمونني أنكم لا تعرفون السبب الخفي الذي يجعلني في نظركم بهذا المظهر، لقد كان عقلي وقلبي منذ الطفولة متجهين نحو عاطفة رقيقة جميلة هي الطيبة. وكنت دائمًا مستعدًا لأن أقوم بأعمال عظيمة، ولكن صممي الذي مضى عليه عدة سنوات، والذي زاد من خطره جهل الأطباء هو سبب آلامي وشقائي.. وما زلت أخدع في أمر تلك العاهة عامًا بعد عام أملًا في زوالها، ولكنني مرغم الآن على احتمالها كمرض مزمن!

«لقد ولدت ذا مزاج حاد، وبي رغبة شديدة للحياة ومباهجها.. ميالًا إلى الاختلاط بالناس، ولكنني وجدت نفسي مضطرًا إلى الانطواء والعزلة.. وكثيرًا ما حاولت التغلب على ذلك، ولكن التجربة القاسية كانت تصدمني وتجدد الشعور بمرضي، لأنني أخجل أن أقول لأحد: تكلم بصوت عال.. اصرخ فإني أصم!

«وكيف أجرؤ على إذاعة ضعف حاسة كان يجدر أن تكون عندي أقوى مما هي عند الآخرين.. لقد حرمت من الاجتماع بالناس، ومن المحادثات اللطيفة، والعطف المتبادل، وهكذا حكم علي أن أبقى وحيدًا!

«لقد خاب أملي في عودة سمعي، ويئست حتى كدت أن أشرع في الانتحار،

ولكنه الفن وحده استبقاني، وقد وضح لي أنه من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم الرسالة التي أحس أني مطالب بأدائها، فأرجو ألا تلين قناتي أو تضعف عزيمتي!

«إنني لن أطلب الموت، وإن كنت أجد فيه راحتي.. أما إذا جاءني، فسوف أواجهه في شجاعة، وداعًا أهل الأرض واذكروني بعد موتي، فأنا جدير بكم».

❊❊❊

وفي بداية ربيع عام 1815، أصبح صمم الموسيقار العظيم تامًا، وبذلك دفن بدنه عن الناس - دون فنه - في قبر من السكون والعزلة، وأصبح ينظر في فزع إلى هذا الكون العجيب الذي يفتح فيه الناس أفواههم دون أن يسمع منهم شيئًا، وصار هزيم الرعد لا ينفذ إلى أذنيه.

ووقعت الطامة الكبرى حينما أراد الفنان على الرغم من صممه أن يقود الأوركسترا بنفسه عند عرض «أوبرا فيدليو»، فقد عرف الجمهور منذ بداية الفصل الأول للأوبرا أن مؤلفها لا يسمع شيئًا، فأصبح الأوركسترا الذي يتبع عصاه في واد والمغنون على المسرح في واد آخر!.. وبدا واضحًا أن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، ومع هذا لم يجرؤ أحد على أن ينبه المؤلف العظيم إلى ذلك. وأخذ بيتهوفن يتلفت يمنة ويسرة عسى أن يفهم من تعبير الوجوه المحيطة به من كل جانب ما يبعث الطمأنينة إلى قلبه غير أنه وجد الصمت التام يلف المسرح كله بأكمله، ونادى بيتهوفن على صديقه المخلص شندلر ومد له قلمه ومفكرته وأشار إليه أن يكتب. وخطت يد شندلر وهي ترتجف هذه الكلمات: «أتوسل إليك ألا تستمر في القيادة.. سأوضح لك السبب في المنزل».

فقال الفنان وهو يئن من شدة الألم:

- إذن هذه هي المسألة.. لقد فهمت!

وبقفزة واحدة أصبح بيتهوفن خارج المسرح!.. وحينما لحق به شندلر في غرفته وجده ملقى على سريره يضرب أذنيه بقبضتي يديه.. وكتب شندلر في مذكراته يقول: «لم ينطق بيتهوفن بكلمة واحدة طيلة تناولنا العشاء. إن هذا الحادث المؤلم قد أصاب قلبه بضربة أثرت فيه تأثيرًا جارحًا حتى آخر رمق في حياته!».

واختفى بيتهوفن بعد ذلك فترة طويلة، ولم يعد أصدقاؤه يسمعون عنه شيئًا، وقليلون هم الذين كانوا يعرفون أنه كان يؤلف وقتئذ أعظم عملين موسيقيين في

العالم: «السيمفونية التاسعة والأخيرة»، و«القداس الحزين»، وفي السابع من مايو عام 1824، في الساعة المحددة للحفل، تذكر بيتهوفن أنه لا يملك حلة سوداء مناسبة، فقال لأحد أصدقائه: «سوف أرتدي حلة خضراء.. إن المسرح سيكون مظلمًا ولن يلاحظ أحد ذلك!». وحينما وصل إلى المسرح حاملًا مخطوطه الموسيقي للسيمفونية التي استغرق تأليفها أكثر من ست سنوات، أفسح له الموسيقيون مكانًا بينهم، فجلس الفنان مطأطئ الرأس وهو لا يسمع شيئًا من سيمفونيته الخالدة التي قال عنها نيتشه: «لقد خلق العالم ليستمع إلى سيمفونية بيتهوفن التاسعة!». وعند انتهاء العزف لاحظ بيتهوفن أن الدموع تترقرق في أعين بعض العازفين. وفجأة أمسك به قائد الأوركسترا أوملوف من ذراعه وأداره تجاه الجمهور. كان الفنان لا يسمع شيئًا ولكنه رأى جمهورًا لا يحصى من الرجال والنساء يشير إليه ويصفق له في حماس منقطع النظير. وترقرقت الدموع في عيني الفنان العظيم!.. وعند نهاية الحفل، علم بيتهوفن أن دخله الصافي لم يعد مبلغًا تافهًا.. لقد بلغ ثلاثمائة فلورين، فقال وهو يكاد يئن من الألم: «رباه! إن هذا مستحيل!».

***

وعادت حياة الفنان بعد ذلك إلى ما كانت عليه: الفقر والمشاجرات مع ابن أخيه. وفي ربيع عام 1826 لجأ إلى مزرعة أخيه جوهان طلبًا لبعض الراحة والهدوء. وذات يوم من أيام نوفمبر استدعته مشكلة عاجلة للعودة إلى فينا: إن الشرطة تريد أن تطرد شارل من العاصمة لاستهتاره وانحلال خلقه. وأسرع بيتهوفن ليتوسط للشاب لدى السلطات، فسافر - وكان الجليد وقتئذ يتساقط - في عربة بائع للألبان!.. واضطر الفنان أن يقضي الليل في إحدى الحانات في البرد القارس على الطريق، فلما كان اليوم التالي وصل إلى فينا مصطك الأسنان وهو يبصق الدم في منديله. ولزم بيتهوفن الفراش وهو يتنفس في ضيق، ومع هذا لم يجد ابن أخيه داعيًا لإخطار الطبيب!

وصادف أن توجه الدكتور فافروخ لزيارته فوجد الفنان مصابًا في رئته إصابة خطيرة. وفي الخامس من يناير عام 1827، أوصى بيتهوفن بكل ما يملكه لابن أخيه. كان الفنان في حالة شديدة من الضعف، غير أن جسمه القوي كان في صراع شديد مع الموت، وفي العشرين من مارس تمتم بيتهوفن يقول لصديقه هيلر عازف البيانو:

- قريبًا جدًا سوف أقوم بقفزتي يا هيلر!

ولم تمض ثلاثة أيام، حتى رأى الدكتور فافروخ أن من واجبه أن يخطر المريض بأن ساعته الأخيرة قد دنت، فتلقى الفنان هذا الخبر وكأنه سيزيح عنه الآلام جميعًا!.. وجاء القسيس، ولما انتهى من الطقوس الدينية الأخيرة، التفت بيتهوفن إلى أصدقائه وقال عبارته الأخيرة:

«والآن، صفقوا أيها السادة، فقد انتهت المهزلة!».

وفي السادس والعشرين من مايو عام 1827، بدأ الاحتضار الرهيب. وفي الساعة الخامسة مساء، هبَّت على المدينة عاصفة ثلجية عنيفة، وكأنما أرادت الطبيعة أن تودع رجلها العظيم الذي غنى ألحانها في رجولة وقوة!.. ونفذ قصف الرعد من خلال جدران الغرفة، فسمعه بيتهوفن في هذه اللحظة! وشدد الفنان المحتضر قبضة يده اليمنى ورفعها عاليًا ثم تركها تهوى إلى جانبه في سكون.. لقد سكنت اليد التي تركت للإنسانية أعظم ما ألَّف في تاريخها من ألحان، ولم يكن إلى جوار صاحبها الذي يرقد على فراشه المتواضع في غرفته الصغيرة إلا صديقه هوتنبرنر، ذلك الذي حظى بشرف إغلاق عيني الفنان الخالد إلى الأبد!

وعبر موكب بيتهوفن مدينة فينا في جنازة رسمية على لحن «المارش الجنائزي» من تأليفه، وكان يسير خلف نعشه أشهر فناني فينا وأذرعهم محملة بالورود، وقد وقف جمهور لا يعد ولا يحصى من الرجال والنساء والأطفال يبكون وينوحون.

المؤلف في سطور

- الاسم: طاهر أحمد الطناحي.
- ولد في مدينة دمياط في 11/ 8/ 1902م.
- التحق بالمعهد الديني بدمياط بعد أن حفظ القرآن وجوَّده.
- دخل مدرسة القضاء الشرعي، وتثقف بثقافة إسلامية عالية.
- تخرج في دار العلوم، وعمل بالصحافة، وتولى رئاسة تحرير كتاب الهلال، وروايات الهلال.
- قدَّم لكتب الإمام محمد عبده بكلمات رائقة وأسلوب شائق عملاق.
- له مؤلفات ودراسات قصصية أعجب بها الصغار والكبار.
- له علاقة حافلة بالود مع كبار الأدباء وعلى رأسهم عباس محمود العقاد فهو صديقه الصدوق طيلة أربعة عقود من الزمان.
- وافته المنية في 14 من أبريل سنة 1967م، بعد أن قدم للبشرية دراسات حافلة بالأدب الجاد، والقصص الهادف الذي واجه به أدب الميوعة والمجون، رحمه الله وغفر لنا وله.

***